

الدولة المهانة في تونس وشعبها الباحث عن الخبز

فاروق يوسف
كاتب عراقي



أكثر من مجرد محاولة لجس النبض أو الاستفزاز العدواني المؤقت كانت اللكمة التي تلقته عبير موسى تحت قبة البرلمان التونسي من قبل أحد ممثلي الإسلام السياسي. وإذا ما عرفنا أن تاريخ الحياة البرلمانية في تونس يعود إلى أول برلمان تم إنشاؤه منتصف القرن التاسع عشر فإن ذلك معناه أن النائب الإسلامي قد تحدى أكثر من مئة وستين سنة من العرف البرلماني الذي يشير إلى نوع متقدم وعال من الرقي في الوعي السياسي كانت تونس سباقة إليه في العالم العربي.

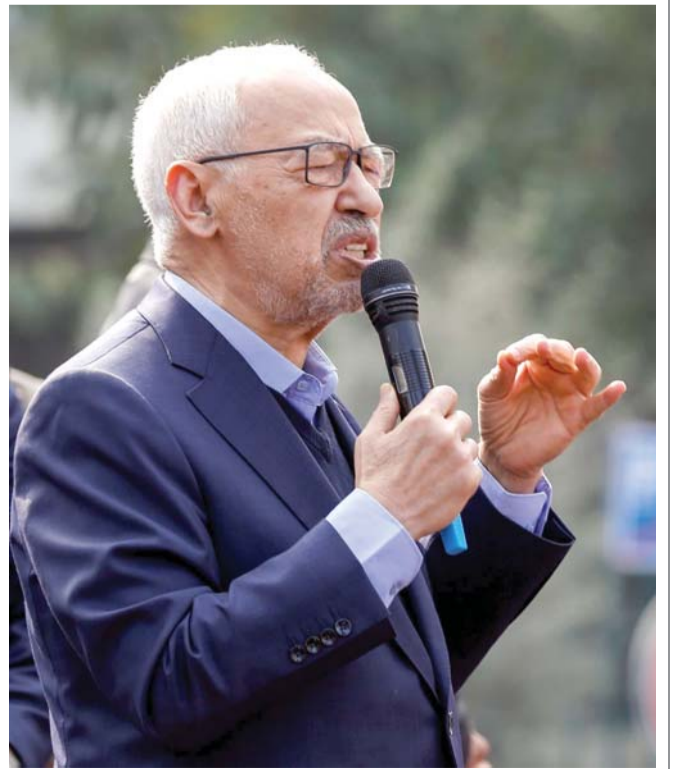
كانت تونس دائما تقف في الموقع الذي يؤهلها لإقامة دولة مدنية حديثة على الطراز الأوروبي وهو ما كان الحبيب بورقيبة حريصا عليه ووفيا له، رغم معارضة التيارات الدينية السلفية التي انتشرت طويلا حتى حان الوقت الذي استطاعت فيه أن تفكك عرى الدولة المدنية وتحكم قبضتها على حلقات مهمة فيها وبعدها صارت تنتقم بطريقة متقنة من التاريخ الذي شهد تحولات عظيمة على مستوى القوانين التي تنظم الحياة الاجتماعية.

لم يقل الشعب أن هناك خطأ فادحا قد وقع، من أجله يجب أن توقف اللعبة. لنضع الكرامة جانبا. هل يجوز لنا أن نفع ذلك؛ لقد هدرت كرامة الشعب مرات عديدة من قبل الأحزاب التي تتمتع بالأكثريّة في البرلمان وهي الأحزاب نفسها التي يعود الشعب من أهدر كرامته. اعتقد أن الأحزاب نزعت عن الشعب كرامته بالتدريج. وهي من خلال دعائها المنتشرين في القرى والأرياف سحقت كرامة الناس مقابل أن يهدبهم أولئك الدعاة مخططا لأقصر الطرق التي تقود إلى الجنة في الحياة الأخرى.

ليس المطلوب أن يقف الشعب مع عبير موسى ولكن كان المطلوب أن يقف الشعب مع المؤسسة التشريعية التي تسن القوانين وتصورها وتدافع عنها.

مع اللكمة التي وجهت إلى عبير موسى كان البرلمان التونسي قد تحول إلى حلبة ملاكمة. وبالرغم من اشتمزازي من مشهد الغنوشي رئيسا للبرلمان فانا لم أتوقع منه، كونه رجلا عاش جزءا من حياته لاجئا في بريطانيا إلا يتحرك من أجل معاقبة النائب المعتدي.

غير أن الغنوشي المريض بإخوانيته يضرب عرض الحائط بكل الأعراف بل ويسكت حين يُهان الشعب التونسي الذي دخل في مرحلة البحث عن الخبز وهو ما يعني أن كرامته قد دبست بشكل متقن ونهائي.



العرب



خط الفم



هل تحتاج تونس إلى تخويف دولي للخروج من أزمتها

مختار الدبابي

كاتب وصحافي تونسي



أطلق رئيس حكومة تصريف الأعمال في لبنان حسان دياب صرخة إلى العالم الثلاثاء بان لبنان في طريقه إلى الزوال، وأن اللبنانيين مهددون بالموت، لكن لا أحد من السفراء وممثلي البعثات الدبلوماسية الذين كان يتحدث إليهم قد وعد بان تستجيب بلاده وتقدم أي مساعدة بشكل عاجل. ولا يخفي الكثير من التونسيين قلقهم بان يحصل مع بلادهم مثلما يحصل مع لبنان، فعناصر الشبه كثيرة، فهناك وهنا يهيمن الفساد وترفض الطبقة السياسية الاستجابة السريعة لما يطلب منها من إصلاحات لإخراج البلاد من الوضع الاقتصادي الصعب. ومثلما أن المانحين الدوليين، وخاصة صندوق النقد الدولي والدول التي عرفت بدعائها للبنان، قد رحلت بين الإفراج عن المساعدات والقروض بتشكيل حكومة اختصاصيين تكون قادرة على تنفيذ إصلاحات عاجلة، فإن الدعم الخارجي متوقف عن تونس ما لم تتفق الطبقة السياسية والمنظمات الاجتماعية على دعم خيار الإصلاحات. ورغم التصريحات المتفائلة التي أطلقها الوفد الحكومي الذي ذهب إلى واشنطن والتقى هناك ممثلي صندوق النقد الدولي، فإن الصندوق متمسك بان يصدر موقف جماعي تونسي يعلن عن تبني الإصلاحات والاستعداد لتنفيذها بالسرعة المطلوبة، لكن الرؤوس الثلاثة للسلطة في البلاد لديهم حسابات أخرى.

رئيس الحكومة هشام المشيشي، وهو رجل تكنوقراط شبيه بحسان دياب، متحمس لشروط الجهات المانحة، لكنه لا يستطيع أن يتبنى أي خيار لوحده في ظل تناقضات المشهد وارتهاق حكومته للحسابات الحزبية. ويضع رئيس البرلمان راشد الغنوشي ساقا مع الإصلاحات في الظاهر، وأخرى ضدها، وسعى لتوظيف علاقات الإسلاميين مع أكثر من بلد للحصول على مساعدات وقروض دون شروط، فلم يحصل سوى على وعود من ليبيا وقطر.

رئيس الجمهورية قيس سعيد لا يبدو معنيا بهذا الملف، وهو يتكى على مظلومية نقص الصلاحيات ويحصر حربه داخلها، ولم يتحرك بصفته رئيس البلاد وقائد دبلوماسيتها للحصول على تفهم دولي لوضع تونس سواء في ما يخص قدرتها على خلاص قروض سابقة أو الحصول على قروض ومساعدات جديدة بالرغم من الزيارات التي قام بها إلى فرنسا وإيطاليا وليبيا. ما يزال المسؤولون يعيشون على صدى ثورة 2011 وإعجاب العالم

بالانتقال السلس الذي تم في البلاد، لكن ذلك الرصيد تم استهلاكه في السنوات العشر الماضية تحت وقع الصراعات السياسية وخطاب العنف المسيطر على المشهد.

لكن الأهم في مسألة الإصلاحات الاقتصادية هو موقف الاتحاد العام التونسي للشغل، المنظمة النقابية ذات النفوذ القوي والتي تتحكم في القرار الحكومي بشكل واضح. لا يبدو الاتحاد معنيا بأي إصلاحات، ومواقفه مرتهنة لازمة داخلية وصراع بشأن تغييرات في قانون المنظمة تسمح بإعادة انتخاب الأمين العام وعدد من عناصر المكتب التنفيذي الذين لم يعد من حقهم قانونيا الترشح لدورة جديدة.

وليس ذلك يسيطر على خطاب الاتحاد التصعيد والهروب إلى الأمام. وما يزال إلى الآن يدعم الإضرابات في قطاعات حيوية بالرغم من الوضع الصعب الذي تعيشه البلاد في قمة أزمة الوباء والوضع الاقتصادي والاجتماعي الصعب.

وليس الأمر متوقفا عند المساعدات والقروض في بلد ينفق بلا حساب على زيادة الرواتب والعلوات، في أوج أزمة، فقد كشفت أزمة الوباء عجز الطبقة السياسية والرؤوس الثلاثة التي تقود البلاد عن توفير الحد الأدنى لإدارة المعركة، فكانت متأخرة في الحصول على التحالف كما هي متأخرة في الحصول على اللقاحات بالرغم من الضغط الشعبي، وخاصة من العاملين في قطاع الصحة.

إلى الآن ما يزال هناك صراع على من يقود المعركة ضد الوباء ومن تعود إليه "النجاحات" التي ستحصل فيها، هل هو رئيس الحكومة الذي لم يسمح له وزنه السياسي وتحالفاته بان يتخذ إجراءات وقائية لمنع تمدد الفيروس، واكتفى دائما بقرارات هادفة إلى ترضية الجميع، وهو أمر بلا قيمة. أم رئيس الجمهورية الذي يتخذ من الحرب على الوباء وسيلة لترميز رؤية تقوم على مركزية القرار بيده وإشراك الجيش والقوات الأمنية في قيادة هذه المعركة.

والمفارقة أن اجتماعين رسميين على أعلى مستوى عقدا حول الملف ولا يفصل بينهما سوى ساعات، الأول أشرف عليه قيس سعيد وحضره المشيشي وقيادات أمنية وعسكرية وخرج بقرارات بينها "تكتيف التحرك الدبلوماسي" للحصول على اللقاحات، والثاني أشرف عليه رئيس الحكومة واتخذ إجراءات أخرى بينها حديث عن ضخ أموال واتفاق على شراء كميات من لقاح جونسون أند جونسون. وكان الأجدر أن تتخذ ذات القرارات في اجتماع واحد من أجل

الحفاظ على الحد الأدنى من تماسك المؤسسات ووحدة القرار في الدولة بقطع النظر عن بقود.

وفي ظل هذه التعقيدات التي كشفت عن محدودية المسؤولين الرئيسيين في البلاد، جاءت حركة النهضة الإسلامية بمبادرة الحكومة السياسية التي لن يكون لها من دور سوى تغيير الاهتمام الرسمي من معركة الوباء بأشكالها المحدودة إلى معركة سياسية حول المحاصصة، ودفع البلاد إلى نقاشات ولقاءات وتوترات جديدة بين الرؤوس الثلاثة خاصة أن فكرة هذه الحكومة لا فائدة منها طالما أنه لعب في الوقت الضائع.



سيطرة الحسابات السياسية والحزبية والشخصية على أداء أطراف الأزمة التونسية وإهمال القضايا الأساسية قد يقودان إلى ردة فعل قوية من المجتمع الدولي فالصراع الداخلي بهذه التطورات لم يعد شأنًا محليًا



وتقول أوساط تونسية إن حكومة سياسية في هذا الوقت المعقد ستكون بمثابة حرف للأنظار عن الملفات الرئيسية، الأزمة الاقتصادية والصحية، خاصة أنها لن تقدر على توحيد السياسيين حول حكومة وحدة وطنية تحوز على رضا الجميع بسبب الغام الصراع التي تحملها. وتشير هذه الأوساط إلى أن حركة النهضة قد تخسر بهذه المناورة على أكثر من مستوى، الأول أنها ستفقد ثقة المشيشي الذي وعدته مرارا بأنه سيكون مرشحها في أي حكومة قادمة، والثاني أنها قد لا تنجح في إقناع الرئيس سعيد بما تسعى إليه من تهدئة، فرييس الجمهورية لا يمكن أن يقف بسهولة بما تقوله النهضة بعد ما جرى مع الغنوشي من خلاف حول الصلاحيات والعلاقات الخارجية، فضلا عن الحملات الإعلامية.

إن سيطرة الحسابات السياسية والحزبية والشخصية على أداء الأطراف الرئيسية في الأزمة التونسية وإهمال القضايا الرئيسية والبحث لها عن حلول قد يقودان إلى ردة فعل قوية من المجتمع الدولي، فالصراع الداخلي بهذه التطورات والتنازع لم يعد شأنًا محليًا. صحيح أن بعض الدول ما تزال تأمل في خروج الانتقال السياسي في تونس من حالة الإرتباك وتجده له بعض الأعداء، لكن التعاطي المباشر مع الفاعلين الرئيسيين يدفع دولا مثل إيطاليا وفرنسا إلى اليأس بسبب غياب جهة واضحة يمكن التعامل معها في ملفات حيوية مثل الهجرة غير القانونية وتتبع شبكات الإرهاب التي باتت التونسيون عنصرا رئيسيا فيها. كما أن رفض المسؤولين التفاعل مع شروط الصناديق الدولية المانحة، وبتقطع النظر عن ظروفهم الداخلية وحساباتهم، فهذا يعني دفع المانحين الدوليين إلى التشدد، ووقف أي مساعدات أو تقديم دعوات من أي قروض تحتاجها البلاد بشكل عاجل في شراء اللقاحات والأجهزة الطبية الضرورية في معركة الوباء، أو تمويل ميزانية الدولية وخاصة توفير الرواتب التي يلوح المسؤولون بانها قد تتوقف في أي لحظة ما لم تسع الحكومة إلى توفير حل لمسألة التمويلات.

لا شك أن الجهات الدولية المعنية لن تستمر بتحمل الوضع في تونس وقد تمر من التفهم والتخدير والتخويف إلى موقف حازم يعلن وقف المساعدات والقروض إلى أن تتجاوز الطبقة السياسية صراعاتها المرضية وتخف خلافاتها حول النظام السياسي والانتخابي وتحسم قضية الصلاحيات وتنتهي إلى حل وفاق يكون قادرا على مخاطبة العالم.